الاستلزام الحواري من خلال انتهاك مبدأ الكم في نماذج من توقيعات القرن الرابع الهجري
مقاربة تداولية

إعداد:

سمية بنت صالح بن محمد المحمود

إشراف:

د. سامية بنت عبدالله بن محمد العمري

أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية في جامعة جدة

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد ظهر فن التوقيعات في الأدب العربي كوسيلة تواصلية ذات وظيفة مقصدية تداولية، إذ يقصد بالتوقيع: "ما يوقعه الخليفة أو عماله على الرقاع التي ترد حاضرة الخلافة، بطلب أو شكوى أو مظلمة" [1]، والتوقيع هو الأثر المطبوع على الكتاب من المُوقع، بعد تأثره به وتأثيره فيه [2]، وهذه الوظيفة التداولية للتوقيعات هي عينها الغاية من الدراسات التداولية، فمهمة المقاربة التداولية مقاربة المعنى والدلالة، ودراسة الجانب الوظيفي والتداولي والسياقي، بهدف الوصول إلى المقاصد الوظيفية في حوارات الناس وتداولاتهم. ويعد الاستلزام الحواري جانباً مهما من جوانب الدراسة التداولية؛ إذ يبحث في مقاصد المتحاورين، التي تشتمل على المعاني المتضمنة غير الطبيعية، ويهدف

[1] - عبد الله الجبوري، معجم المصطلحات الحضارية على طبقات الشافعي للأسنوي، ج٢، ص٥٩٦.

[2] - " التوقيع هو أثر الدبر في ظهر البعير وأثر الكتابة في الكتاب"، والتوقيع في الكتاب هو " إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه، وتوقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه" (لسان العرب، ابن منظور، بيروت: دار صادر (د.ت). مادة: وقع).

للتركيز عليها وعلى ما يحيط بها من سياقات وافتراضات مسبقة، تؤثر في المقاصد أكثر مما يؤثر القول نفسه.

أ- فن التوقيعات

مفهوم التوقيعات:

- **التوقيع لغة:** هو أثر الدبر في ظهر البعير، وأثر الكتابة في الكتاب، و التوقيع في الكتاب إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، و"توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول،... فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه"[٢]. إذًا يلاحظ أن التوقيع سمي توقيعاً؛ لأن تأثر بالكتاب وتأثير فيه.

ومن خلال التعريف اللغوي تظهر خصائص التوقيع المتسم بها وهي: الإيجاز والبلاغة .

- **التوقيع اصطلاحا:** يظهر من التعريف اللغوي للتوقيع الخلاصة التي بني عليها هذا الفن وسبب تسميته بهذا الاسم، وذلك نسبة إلى "ما يوقعه الخليفة أو عماله

[١] - ينظر محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مادة: وقع.
[٢] - ابن منظور، المرجع السابق، مادة: وقع.

على الرقاع التي ترد حاضرة الخلافة، بطلب أو شكوى أو مظلمة" [1]، يقول ابن خلدون في التوقيع: "وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجال حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة أحكامها، والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه"[2].

وقد عرفه ابن السيد البطليوسي بقوله: "وأما التوقيع: فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك أو من له أمر ونهي، في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في غرضه، بإيجاب ما يُسأل أو منعه، كقول الملك: ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب: لترد على هذا ظلامته، أو لينظر في خبر هذا، أو نحو ذلك" [3].

ويُعرف عمر فروخ التوقيعات بأنها: "جمل قصار مقتبسة أو منشأة، كان الخلفاء خاصة يوقعون بها، ومن هنا جاء اسمها في آخر القصص أو الرقاع التي تعرض عليهم،

[1] - الجبوري، معجم المصطلحات الحضارية، ج٢، ص ٥٩٦.
[2] - عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، تحقيق: د. علي عبدالواحد وافي، ط٢، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨١م)، ص٦٨١.
[3] - عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبدالحميد، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٦م)، ج١، ص١٩٦.

وفيها اقتراح بعمل، أو طلب من محتاج، أو حكم من قضاء، أو مبلغ من المال للصرف والإنفاق" .[1]

أما الدكتور محمد نبيه حجاب فيعرف التوقيعات بقوله: "يراد بها التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها، مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة أو قول محكم، من إنشاء الكاتب بأسلوب موجز دقيق، ربما بلغ بالإيجاز حد الإعجاز" ،[2] ويرى حجاب أن التوقيعات فن منبثق من الكتابة الإنشائية، وتندرج تحت الرسائل الرسمية التي فيها الإطناب والبسط والتفصيل، وفيها الإيجاز إذا اقتضى ذلك المقام والذي يبلغ حد التوقيع .[3]

ومن تعريف محمد نبيه حجاب يلاحَظ أنه يؤكد على سمة الإيجاز التي تجعل من التوقيع توقيعا، فلو طال التوقيع وزاد البسط فيه والإطناب لتغيرت هيئته المعروف بها، وصار التوقيع أشبه بأنواع الفنون الأخرى التي تندرج تحت باب الرسائل الرسمية أو الديوانية.

ويعرفها الدكتور علي أبو زيد بقوله: "التوقيعات شكل من أشكال التعبير النثري، وفن من فنون القول العربي، له ملامحه وله سماته، وله دوافعه وله بواعثه، وله كُتَّابه الذين

---

[1] - د. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، الجزء٢، (بيروت: دار العلم للملايين، د.ت)، ص٤٥.

[2] - د. محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط٢، (مكتبة الطالب الجامعي،١٩٨٦م)، ص٩٦.

[3] - ينظر حجاب، المرجع السابق، ص٩٥، ٩٦.

عرفوا به وعرف بهم، ولعل في اسم هذا الفن الكثير من الدلالات التي تعبر عن شكله وهيئته، وأيضا عن دوره الذي أعد له" .[1]

ومن هنا يظهر أن فن التوقيعات فن نثري متفرد بأصله وبسماته الخاصة به، إذ إن التوقيع يحمل معنى الأثر والتأثر بالكتاب، ويحمل سمة الإيجاز، ويؤدي دوره من خلال الردود العاجلة التي تختصر الوقت والجهد، والألفاظ الموجزة البليغة المقنعة التي تقع في الذهن، ويسهل حفظها وتواردها واستخدامها.

ب- نظرية الاستلزام الحواري

توطئة

يقوم هذا المفهوم على المحاضرات التي ألقاها بول جرايس في جامعة هارفرد سنة ١٩٦٧م قدم فيها تصوره بإيجاز لهذا الجانب من الدرس، طبعت أجزاء منها سنة ١٩٧٥م تحت عنوان: (المنطق والحوار) ثم وسعها بعد ذلك في بحثين الأول سنة ١٩٧٨م، والثاني سنة ١٩٨١م ، منطلقا من رؤيته بأن "الناس[2] في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون" ، ومن خلالها أسس جرايس [3]

[1] - د. علي أبو زيد، أحمد بن يوسف الكاتب الوزير دراسة أسلوبية في آثاره الفنية، (دار المعارف،١٩٩٧م)، ص٧٧.

[2] - ينظر محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، (دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م)،ص٣٢.

[3] - نحلة، المرجع السابق، ص٣٣

نظرية التعاون مركزا على إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد . لذا يركز جرايس [١] على القصد من القول أكثر من القول نفسه، فالقصد هو: ما أراد المتكلم إيصاله للسامع على نحو غير مباشر، وهو يفهم من خلال التأويل الذهني الذي يظهر من خلال سياق الحديث ، وعن طريق الافتراض المسبّق والخلفية المشتركة للمتحاورين، التي تضم الأبعاد الفكرية والاجتماعية والنفسية التي يمثلها السياق ، والتي تسهم في التوجيه الصّحيح للتأويل، لأجل الوصول للهدف المحدد وضمان عدم الانحراف لمعاني أخرى غير مقصودة، بينما القول هو ما تشير إليه العبارات اللفظية وتركيب النص حرفيا [٤] .

أنواع المعنى:

من خلال اهتمام جرايس بالمعنى، ميز بين نوعين من الدلالة وهما: الدلالة الطبيعية، والدلالة غير الطبيعية. فالدلالة الطبيعية هي ما تشير إلى المعنى الذي وضع له في أصل اللغة دون الحاجة إلى تأويل، فهي عبارة عن المحتوى القضوي، أو هو القوة الإنجازية الحرفية . أما الدلالة غير الطبيعية فقدْ أوضحها بقوله: "أن نقول إن القائل قصد شيئا ما

---

[١] - ينظر نحلة، المرجع السابق.
[٢] - ينظر المرجع السابق، ص ٣٣
[٣] - ينظر نبيلة بو قرة، الاستلزام التخاطبي في كتاب الأذكياء لابن الجوزي، سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد٤، العدد١، (٢٠١٩م)، ص٤١٥.
[٤] - ينظر نحلة، المرجع السابق، ص٣٣.
[٥] - جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، (الأردن: كنوز المعرفة، ٢٠١٦م)، ص٩٩

من خلال جملة معينة، فذلك يعني أن هذا القائل كان ينوي وهو يتلفظ بهذه الجملة إيقاع التأثير في مخاطبه، بفضل فهم هذا المخاطب لنيته" ، إذاً فالدلالة غير الطبيعية تعتمد على نوايا المتكلم ومقاصده، ويعتمد نجاح المخاطب في الوصول إليها من خلال بناء الاستدلالات المنطقية بالاعتماد على السياق، ومن ثَم فإنجاح التواصل يعتمد على كفايات المتحاورين اللسانية والتداولية .

ومن خلال هذا يلاحظ اهتمام جرايس بموضوع الدلالة غير الطبيعية لكونها ترتبط بمقاصد المتكلمين ونواياهم، وما يدور في أذهانهم أثناء كلامهم، سواء ظهر ذلك بشكل صريح أم لم يظهر.

تعريف الاستلزام الحواري:

يمكن تعريف الاستلزام الحواري بأنه: "عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة حرفيا" ، أي أن الاستلزام هو الانتقال[٢]من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير

[١] - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ترجمة: د. سيف الدين دعفوس، ود. محمد الشيباني، (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣م)، ص٥٣.

[٢] - صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، (القاهرة: الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٥م)، ص٧٨.

الطبيعية، ومن هنا يمكن القول: إن الاستلزام الحواري هو المعنى الثاني الذي لا يصرح به المتكلم، ولكنه يظهر من خلال عملية الفهم والتأويل .[١]

ج- نظرية التعاون

توطئة:

حاول جرايس حل إشكال: "كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر، ثم كيف ممكنا أيضا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟" لذلك وضع مبدأ التعاون،[٢] ويصاغ هذا المبدأ على النحو التالي: "ينبغي أن تكون مساهمتك الحوارية بمقدار ما يطلب منك في مجال يتوسل إليه بهذه المساهمة، تحدوك غاية الحديث المتبادل أو اتجاهه، أنت ملتزم بأحدهما في لحظة معينة" .[٣]

وبهذا يمكن القول: إن مبدأ التعاون هو حجر الأساس الذي يرتكز عليه الاستلزام الحواري، وهو يقتضي من المتحاورين عمليتين متوازيتين هما: الإنتاج والتأويل، فالإنتاج

---

[١] - كوثر حمون، الاستلزام الحواري من خلال خطابات سيدنا إبراهيم -عليه السلام- دراسة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (٢٠١٧م)، الجزائر، ص٢٣.

[٢] - نحلة، آفاق جديدة، ص٣٤.

[٣] - العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، (الرباط: دار الأمان منشورات الاختلاف، ٢٠١١م)، ص٩٩.

يحيل إلى التلفظ الذي يرتبط بالمتكلم، أما التأويل فهو يتطلب من المتلقي الاستناد إلى عدة وسائل لسانية وغير لسانية .[1]

قواعد مبدأ التعاون

ولوصف ظاهرة الاستلزام الحواري أنشأ جرايس أربع قواعد متفرعة عن المبدأ الحواري العام مبدأ التعاون، وأي خرق لها ينتج عنه استلزام، وهي:

أ- مبدأ الكم:

لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته، دون زيادة أو نقصان، بما يضمن تحقيق الغرض.

ب- مبدأ الكيف:

لا تقل ما تعلم كذبه، وما ليست لك عليه بينة ودليل.

ج- مبدأ المناسبة أو العلاقة:

اجعل كلامك ذا مناسبة للموضوع، وليناسب مقالك مقامك.

د- مبدأ الطريقة أو الأسلوب:

[1] - ينظر ذهبية حمو الحاج، قوانين الخطاب في التواصل الخطابي، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، دار الأمل، العدد٢، (٢٠٠٧م)، ص٢٢٠.

يجب أن تكون واضحا وتجنب الغموض واللبس، يجب أن تكون موجزا وتجنب الإطناب، حافظ على ترتيب الكلام والمنطق في الحوار .[١]

إن غاية جرايس من تحديد هذه القواعد؛ تنظيم عملية التحاور من أجل الوصول إلى الهدف المنشود، فيفترض في المتحاورين التعاون التام والالتزام بهذه المبادئ، فإذا تم التسليم بها ضمنيًا عند التحاور كان هذا استلزامًا عرفيًا أو نموذجيًا، أما إذا تم خرق هذه القواعد وحصل الانتقال من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية، فهنا يكون المتكلم قد لجأ إلى القيام بالاستلزام الحواري، ويقوم المخاطب حينها بعملية استدلالية للوصول للغرض المنشود والهدف المحدد.

إذًا كما يلاحظ تقوم نظرية التعاون وهي مبدأ حواري عام؛ على أربعة مبادئ فرعية وهي: مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ المناسبة، ومبدأ الطريقة، وعند انتهاك أحد هذه المبادئ أو أكثر يحدث الاستلزام الحواري .[٢]

وسيتم في هذا البحث التركيز على مبدأ واحد من مبادئ نظرية التعاون؛ وهو مبدأ الكم.

---

[١] - ينظر فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة، (اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٧م)، ص٨٥،٨٤، وينظر روبول وموشلار، التداولية اليوم، ص٥٦،٥٥، وينظر مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٥م)، ص٣٤،٣٣، وينظر نحلة، آفاق جديدة، ص٣٤.

[٢] - ينظر نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص٣٤، ٣٥.

مبدأ الكم

قاعدة هذا المبدأ تقول: لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته، دون زيادة أو نقصان، بما يضمن تحقيق الغرض ، فإذا زاد الكلام عن قدر الحاجة انتهك هذا المبدأ، وأدى ذلك للإطناب الذي يحمل في طياته استلزاما حواريا، وهو كذلك أيضا حين النقصان عن مقدار الحاجة، فيؤدي للإيجاز الذي يتضمن في بواطنه معاني مستلزمة.

ومن ثَم يجب على المتحاورين أن يتعاونوا فيما بينهم للوصول للمقصد المحدد دون انتهاك لأي مبدأ من مبادئ التعاون، كمثل الحوار التالي الذي دار بين الزوج (أ) والزوجة (ب)

أ- أين مفاتيح السيارة؟

ب- على المائدة .[٢]

ويبدو ظاهرا أن مبدأ التعاون متحقق في الحوار السابق، فالزوجة استخدمت القدر المطلوب من الكلمات للإجابة على هذا السؤال دون أن تزيد أو تنقص(الكم)، وكانت صادقة(الكيف)، وأجابت إجابة واضحة(الطريقة)، وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال

[١] - ينظر بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص٨٤ ،٨٥، وينظر روبول وموشلار، التداولية اليوم، ص٥٥، ٥٦، وينظر صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص٣٣ ،٣٤، وينظر نحلة، آفاق جديدة، ص٣٤.

[٢] - ينظر نحلة، المرجع السابق، ص٣٥.

زوجها(المناسبة)، لذلك لم يتولد عن قولها أي استلزام، لأنها قالت ما تقصد بشكل مباشر دون مواربة .[١]

أما إذا لم يتعاون المتحاورون فيما بينهم وانتهك المتكلم أحد المبادئ، حينها يدرك المخاطب ذلك ويسعى للكشف عن المعاني المستلزمة للوصول لهدف المتكلم من هذا الانتهاك، ومثال هذا في الحوار التالي بين أم (أ) وولدها (ب)

أ- هل اغتسلت ووضعت ثيابك في الغسالة؟

ب- اغتسلت .[٢]

في هذا الحوار خرق وانتهاك لمبدأ الكم، لأن فيه نقصان عن قدر الحاجة، فالأم سألت الابن عن أمرين لكنه أجاب على واحد وسكت عن الثاني، فإجابته أقل من المطلوب، ويستلزم هذا أن تفهم الأم أن الابن لم يقم بوضع ثيابه في الغسالة، ولم يرد أن يجيب بنعم فيكذب عليها، ولا أن يجيب بلا خشية من عقابها .[٣]

ويتضح مما سبق أن خرق وانتهاك مبدأ الكم يحمل في طياته الكثير من المعاني المستلزمة، التي يقصدها المتكلم وأراد أن يقولها بطريقة غير مباشرة، وعلى المخاطب

---

[١] - ينظر المرجع السابق، ص٣٥.
[٢] - ينظر نحلة، آفاق جديدة ، ص٣٦.
[٣] - ينظر نحلة، المرجع السابق، ص٣٦.

السعي للكشف عنها للوصول إلى المقصد المحدد، دون الانحراف إلى مقاصد أخرى غير مرغوبة.

وسيتم دراسة مبدأ الكم في جملة من توقيعات القرن الرابع الهجري للكشف عن الاستلزام الحواري والوصول لمقصدياته الوظيفية.

يتضمن مبدأ الكم ثلاثة أنواع وهي:

١- الانتهاك من خلال الإيجاز.

٢- الانتهاك من خلال الإطناب.

٣- موافقة مبدأ الكم من خلال المساواة.

ويمكن تتبعها في نماذج من توقيعات القرن الرابع الهجري على النحو التالي:

١. الانتهاك من خلال الإيجاز

- **<u>التوقيع الأول:</u>**

"كتب أبو القاسم ابن الزبيدي كتابا إلى **أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم(ت٣٥٠هـ)** يرغب فيه أن يحسن العناية به في بعض الأمور، وكتب في آخر الكتاب:

ومِن نكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يَرى ... عدوًّا له مَا مِن صَداقتِه بُدّ

فوقع أبو عمر على ظهر الرقعة:

ومِن نكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أن يَرى ... صَدِيقًا له ما مِن عَداوتِه بُدُّ"[٢]

يلاحظ فيما سبق أن الحوار دار بين شخصين، الأول وهو أبو القاسم وقد اقتبس بيتا من الشعر لأبي الطيب المتنبي وحمله معنى مستلزما قصد فيه أن أبا عمر عدو له، لكنه مكره على صداقته، إذ أجبرته الأيام والظروف على ذلك، ولم يخفِ هذا عن أبي عمر بل أوحى له بهذا المعنى عن طريق بيت الشعر، أما أبو عمر فرد عليه بتوقيع يحمل صلب معنى كلامه ولكن بعبارة أخرى مختلفة إذ قدم "**صديقا له**" لغرض العناية والاهتمام به، وأخر "**ما من عداوته بد**"، وهو يستلزم معنى أكثر لطفا يقصد به أن أبا القاسم كان صديقا

[١] - "أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس المنتجيلي الصدفي، أبو عمر(٢٨٤- ٣٥٠هـ - ٨٩٧- ٩٦١م)، مؤرخ أندلسي، له (التاريخ الكبير) في المحدثين، قال ابن الفرضي: بلغ الغاية، وقال ابن خير: خمسة وثمانون جزءا. من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق سنة٣١١هـ، ووفاته بقرطبة"، (خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، د.ت، ط١٥، ج١، ص١٣٠).

[٢] - محمد سالم قريميدة، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة من العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي تاريخا ودراسة، الجزء١، رسالة دكتوراه، جامعة طرابلس، طرابلس(٢٠١٢م)، ص٢٦١.

له، لكنه يجبره الآن على معاداته وإظهار هذه العداوة للعلن، وذلك بسبب غضبه منه عندما ذكر بيت الشعر هذا وهو في مقام الحاجة والضرورة، فالموقـِع هنا احتفظ بصفة الصداقة لصديقه وجعل العداوة شيئا طارئا، أما أبو القاسم فكان عكس ذلك فهو معادٍ لأبي عمر لكنه يظهر الصداقة له اتقاء لشره ونيلًا لحاجته، وفي التقديم والتأخير الذي انتهجه الموقع حصول الفائدة المرجوة من هذا الاستلزام الذي قصده، يقول **الجرجاني** متحدثا عن فائدته: "هذا باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان" ، وفيما يُرى أن التوقيع انتهك[1] مبدأ الكم؛ فالموقع أوجز في اللفظ ولم يأت بألفاظ جديدة، وإنما قدم وأخر في بيت الشعر ليحصل على معنى جديد.

- **التوقيع الثاني:**

وقع **القاضي منذر بن سعيد البلوطي(ت٣٥٥هـ)** "القوم من أهل المجانة والظرف[2] كتبوا له رقعة جاء فيها:

---

[1] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط٣، تحقيق: محمود شاكر، (جدة: دار المدني، ١٩٩٢م)، ص١٠٦.

[2] - "منذر بن سعيد بن عبدالله بن عبدالرحمن النفزي القرطبي، أبو الحكم البلوطي(٢٧٣- ٣٥٥هـ -٨٨٦- ٩٦٦م) قاضي قضاة الأندلس في عصره، كان فقيها خطيبا شاعرا فصيحا. نسبته إلى (فحص البلوط) بقرب قرطبة. ويقال له (الكزني)

قُل لقَاضِي الجَماعةِ البَلوطِي ... ما تَرى في خَريدة [1] كالخُوطِ [2]

ناكَها للثَّوابِ قَومٌ ظرافٌ ... هل تَرى سَيدِي بذَا مِن سُقوطِ

بتوقيع كتب فيه: **لا**" [3] .

يظهر في هذا التوقيع خرق لمبدأ الكم؛ وذلك للإيجاز الشديد الذي أتى به هذا الموقع، إذ قد يظن الناظر فيه أنه موافق لمبدأ التعاون فالجواب جاء على قدر السؤال، ولكن تظهر الغرابة في الإجابة التي أتى بها، فقد سألوا القاضي عن رأيه في فتاة بكر عذراء قليلة اللحم تشبه في رقتها ونحولها الغصن الرقيق الناعم، جامعها قوم ظراف للحصول على الأجر والثواب، فهل فيما فعلوا وقوع في الخطأ؟ فوقع في كتابهم (لا) مفردة [4] ، أي لا إثم عليهم! وهنا الجواب غير متوقع من قاض صاحب دين، فاستغربوا الجواب، "وقال له من حضر: ما هذا؟ فقال: أردت: لا أرى ذلك، فقالوا: لا يفهم عنك إلا غيره، فقال: كل

نسبة إلى فخذ من البربر يسمى (كزنة). رحل حاجا سنة ٣٠٨هـ فأقام في رحلته أربعين شهرا، أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر. قال ابن الفرضي: كان بصيرا بالجدل، منحرفا إلى مذاهب أصحاب الكلام، لهجا بالاحتجاج. ولي قضاء (ماردة) وما والاها، ثم قضاء الثغور الشرقية، فقضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٣٩هـ واستمر إلى أن توفي فيها. لم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور. له كتب في القرآن والسنة على أهل الأهواء."، (الأعلام، ج٧، ص٢٩٤).

[1] - "خرد: الخريدة والخريد والخرود من النساء البكر التي لم تمسس قط"، (ابن منظور، لسان العرب، مادة: خرد، ص١٦٢).

[2] - "الخوط: الغصن الناعم"، (لسان العرب، مادة: خوط، ص٢٩٧).

[3] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٦٠.

[4] - ينظر أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، (تونس: دار الغرب الإسلامي،٢٠١٣م)، ج٢، ص٢٣٩.

يجاوب على معتقده" ، ويظهر من خلال قوله؛ "أن[1] جوابه كان من باب النوادر والملح" ، فالمقصد المستلزم الذي كان في باطن التوقيع الموجز أنه لا يرى ذلك الفعل صحيحا، لكن من شدة الإيجاز أخل بالمعنى، وانحرف بالمخاطب في خلال عملية التأويل إلى مقاصد أخرى غير مرغوبة، وكان من الأولى أن يلغي هذا الاستلزام بإضافة تتمة للكلام في قوله.

- **التوقيع الثالث:**

وقع الوزير أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن العميد(ت٣٦٦ه) "في رقعة من انحرف عن السلطان وجاهر بالعداوة" : **﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ و﴿فَعَلْتُ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)﴾" ، ووقع الوزير**

[1] - ابن عذاري، المرجع السابق، ص٢٣٩.
[2] - المرجع السابق.
[3] - "ابن العميد(٣٣٧- ٣٦٦هـ - ٩٨٤- ٩٧٧م) علي بن محمد بن الحسين، أبو الفتح ابن العميد، وزير، من الكتاب الشعراء الأذكياء، يلقب بذي الكفايتين، وهو ابن أبي الفضل (ابن العميد) الوزير العالي الشهرة (المتوفى سنة ٣٦٠هـ)، خلف أباه في وزارة ركن الدولة البويهي بالري ونواحيها سنة ٣٦٠هـ ولقبه الخليفة الطائع لله بذي الكفايتين (السيف والقلم) واستمر إلى أيام مؤيد الدولة (ابن ركن الدولة) وأحبته القواد وعساكر الديلم، لكرمه وطيب أخلاقه، فخاف آل بويه بالعاقبة، فقبض عليه مؤيد الدولة وعذبه ثم قتله، وأخباره كثيرة على قصر مدته."، (الأعلام، ج٤، ص٣٢٥).
[4] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢١٨.
[5] - سورة الشعراء، آية ١٨، ١٩.

الصاحب إسماعيل بن عباد الطالقاني(ت٣٨٥ه) بالتوقيع نفسه في رقعة أبي محمد الخازن، "وكان قد ذهب مغاضبا، ثم كتب إليه يستأذنه لمعاودة حضرته" [٢].

يُلاحظ في توقيع هذين الوزيرين اقتباسهما هاتين الآيتين من القرآن الكريم؛ وذلك لتشابه الأحداث والمواقف التي جعلتهما يستحضرانها، فالآية تحكي الحدث الذي كان بين موسى وفرعون، يقول ابن كثير نقلا عن الطبري في تفسير الآيتين: "**أَيْ أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِينَا وَفِي بيتنا وعلى فراشنا، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا، وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ أَيِ الْجَاحِدِينَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ**" [٣].

---

[١] - الصاحب بن عباد(٣٢٦- ٣٨٥هـ - ٩٣٨- ٩٩٥م) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي، استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) وإليها نسبته، وتوفي بالري ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة منها (المحيط)، وكتاب (الوزراء) و(الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) و(الإقناع في العروض وتخريج القوافي) ورسالة (عنوان المعارف وذكر الخلائف)، و(الأعياد وفضائل النيروز)، وقد جمعت رسائله في كتاب سمي (المختار من رسائل الوزير ابن عباد) وله شعر في ديوان، وتواقيعه آية الإبداع في الإنشاء."، (الأعلام، ج١، ص٣١٦).

[٢] - محمد سالم، المرجع السابق، ص٢٢١.

[٣] - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٩هـ)، المجلد٦، ص١٢٤.

فالموقع الأول وقع بهذا الاقتباس الذي خالف مبدأ الكم إذ كان التوقيع موجزا يحمل استلزاما حواريا، وفيه مقصدان أولهما: تذكيره بفضله وامتنانه عليه حيث كان في كنفه ورعايته عدة سنين، وثانيهما: تأنيبه وعتابه لما انحرف عن السلطان وجاهر بالعداوة، فهو يعاتبه ويحاسبه على فعلته التي يعدها من الجحود ونكران الجميل.

أما الموقع الثاني فقد وقع بالاقتباس نفسه الذي خرق مبدأ الكم حيث الإيجاز الذي يستلزم عدة مقاصد في مضمونه، أولها: التذكير بفضله إذ قضى كل تلك السنين بحضرته، وثانيها: التذكير بفعلته التي فعلها وتأنيبه وعتابه عليها وقصد منها إرجاعه لنفسه ومحاسبتها، لأن فعلته جحود وليست جزاء الإحسان، وثالثها: الإجابة على طلبه بالرفض غير المباشر والذي يظهر في باطن هذا العتاب والتأنيب.

ويظهر مما سبق تشابه المواقف، وتوافق ردود الأفعال في مواجهة الحدث، الذي يستلزم مواجهة تكتنف في جنباتها عدة مقاصد، أودعها الموقعون داخل هذا الاقتباس الموجز الذي يحمل في طياته الكثير من المعاني الضمنية والمقاصد المحددة، التي تستوجب من المخاطب القيام باستدلالات منطقية، وتتطلب خلفية مسبقة ومعرفة بالقصة التي حملتها الآية ولاشك أن المخاطب يعرفها، فإذا كان من المؤكد أنه قد وصل لمقصد المتكلم ولابد له حينها الاعتراف بالذنب والاعتذار.

- **التوقيع الرابع:**

وقع الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد الطالقاني(ت٣٨٥ه) "في شأن عامل خوار: **عجل له خوار**" .[١]

يتمثل في هذا التوقيع انتهاك لمبدأ الكم وذلك لإيجاز التوقيع، والذي اقتبسه من القرآن الكريم لهدف مقصود محدد وهو من قوله تعالى: "**﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ...(٨٨)﴾**[٢] ، قال **ابن كثير**: "**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أن هَارُونَ مَرَّ بِالسَّامِرِيِّ وَهُوَ يَنْحِتُ الْعِجْلَ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ :أَصْنَعُ مَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، فَقَالَ هَارُونُ :اللَّهُمَّ أَعْطِهِ مَا سَأَلَ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ، وَمَضَى هَارُونُ .وقال السَّامِرِيُّ :اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ يَخُورَ فَخَارَ، فَكَانَ إِذَا خَارَ سَجَدُوا لَهُ، وَإِذَا خَارَ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ .ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ حَمَّادٍ وَقَالَ :أَعْمَلُ مَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ** "[٣].

فالتوقيع يحمل في طياته مقاصد عدة، إذ ربط الموقع بين شأن هذا العامل الخوار وبين العجل في الآية الذي له خوار، والرابط بينهما عدم المنفعة والفائدة، فالعجل مصنوع وغير مخلوق وليس له منفعة أو فائدة ولا يملك سوى صوت الخوار الذي يصدره، وهذا العامل الخوار يشاركه بالصفة ذاتها فهو شخص غير نافع ولا فائدة مرجوة منه، وكلاهما اشتركا بإصدار الأصوات فقط دون الأفعال، فهذا العامل أوكلت له مهمة وعمل ولكنه

---

[١] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٢١.
[٢] - سورة طه، آية ٨٨.
[٣] - ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد٥، ص٢٧٣.

قصر في أداء عمله ولم ينفع بشيء، وهذا العجل صنع لكي يكون إلهًا لهؤلاء القوم لكنه لن ينفعهم بأي شيء.

- **التوقيعان الخامس والسادس:**

وقع أيضا **الوزير الصاحب ابن عباد(٣٨٥ه)** توقيعين موجزة أشد الإيجاز، إذ وقع رقعة بنقطة، وفي رقعة أخرى بألف، وذلك أنه التمس منه بعض القضاة شيئا، ثم كتب في آخر رقعته: فإن رأى مولاي يفعل ذلك فعل، **فوقع قبل (فعل) ألفا فصار (أفعل)** فخرج التوقيع ولم يشعر به، ثم رجع فقال: قد وقعت، حتى فطن له، وأما النقطة فإنه وضعها في رقعة على لفظة (يفعل) **فنقط الياء من فوقها، فعادت نونا (نفعل)** .[١]

في هذين التوقيعين خرق لمبدأ الكم من خلال الإيجاز، والذي يحمل استلزاما حواريا فيه مقاصد عدة، فبالرغم من إيجاز هذين التوقيعين إلا أن هذه الطلبات قد أجيبت ونفذت، فقط(بنقطة وحرف!)، كما تشير إلى أن الصاحب إسماعيل شخص مهتم بالأفعال أكثر من الأقوال، إذ لم يرجُ مدحًا أو صيتًا ذائعًا من توقيع متكلف منمق، وإنما حرص على إنجاز الأمور المهمة، وتحقيقها بأقصى سرعة.

[١] - ينظر محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٢٦.

من خلال ما سبق يتضح ظهور مخالفة مبدأ الكم من خلال الإيجاز بصور مختلفة، قد تصل أحيانا إلى الإيجاز الشديد بالتوقيع بكلمة أو حرف أو نقطة، وقد تصل إلى الإيجاز الشديد المبالغ فيه المخل بالمعنى.

ويظهر مما سبق أن التوقيعات في جانب الإيجاز غلب عليها الطابع السياسي، وذلك لحاجة السياسة، وإدارة شؤون الدولة والوزارات إلى الإيجاز، للحصول على سرعة الإنجاز، في أقل وقت وجهد.

٢- الانتهاك من خلال الإطناب

- **<u>التوقيع الأول</u>:**

وقع الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن داوود ابن الجراح(ت٣٣٤ه) لابن[١] مرانة العطار في قصة، يسأله أن يكلم أمير المؤمنين المقتدر بالله، حتى يصفح عنه فكتب:

"**من تحقق بالوزراء، وجالس الأمراء، وداس بسط الخلفاء، وماثل الكبراء، وأمر ونهى**

[١] - "ابن الجراح(٢٤٤- ٣٣٤هـ - ٨٥٩- ٩٤٦م) علي بن عيسى بن داوود ابن الجراح، أبو الحسن البغدادي الحسني، وزير المقتدر العباسي والقاهر، وأحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد، فارسي الأصل، نشأ كاتبا كأبيه، وولي مكة. واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠هـ فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة وحمدت سيرته. ثم عزله المقتدر سنة ٣٠٤هـ وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١هـ ومنها إلى صنعاء. فأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢هـ فعاد. ولي فيها الاطلاع على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما. وأعاده المقتدر إلى الوزارة فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤هـ ونقم عليه سنة ٣١٦هـ فعزله وقبض عليه. ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨هـ فعزله وقبض عليه. وهكذا كانت حياته ملؤها الاضطراب، وتوفي ببغداد. له عدة كتب منها (ديوان رسائل) و(معاني القرآن) أعانه عليه ابن مجاهد المقري، و(جامع الدعاء) و(كتاب التاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء)."، (الأعلام، ج٤، ص٣١٧).

في مجالس الرؤساء، بعقل يسير، وفهم قصير، ورأي حقير، وأدب صغير، كان خليقا بالنكبة، وحريا بالمصيبة، وجديرا بالمحنة، وأنا أتكلم إذا حضرني الكلام فيك بما يقربني إلى الله تعالى" .[1]

يظهر في هذا التوقيع انتهاك مبدأ الكم من خلال الإطناب الذي يفوق الحاجة، إذ ذكر الموقع المعاني بوجوه مختلفة، وهذا يستلزم عدة مقاصد أرادها الموقع، منها: التأكيد على ذات المعنى فعندما قال: "**من تحقق بالوزراء، وجالس الأمراء، وداس بسط الخلفاء، وماثل الكبراء، وأمر ونهى في مجالس الرؤساء**" قصد منه اتساع حضور ابن مرانة في كل مجلس، ومخالطته لكبار المنزلة والقدر من الأمراء والوزراء والخلفاء، ليتبادر إلى الذهن أنه شخص ذو شأن كبير ومنزلة عالية، وذو عقل راجح ورأي سديد، لكنه يصدم المخاطب بذكر صفاته التي هي عكس ذلك بقوله فهو: "**بعقل يسير، وفهم قصير، ورأي حقير، وأدب صغير**"، وهذا القصد بأنه ضعيف الشأن وسيء الخلق، فهو مستحق لما حصل له من غضب الخليفة عليه، حيث يقول: "**كان خليقا بالنكبة، وحريا بالمصيبة، وجديرا بالمحنة**"، وفي قوله: "**وأنا أتكلم إذا حضرني الكلام فيك بما يقربني إلى الله تعالى**" هنا يمكن تخمين كلامه الذي سيقوله بشأن ابن مرانة عند الخليفة، الذي يشي به كلامه السابق عنه حيث يتضح أنه لن يكون في صفه ولن يتشفع له عند الخليفة، وهذا

[1] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢١٣.

المقصد يستنتجه المخاطب من الاستدلالات المنطقية التي أوصلها الإطناب في خرق مبدأ الكم، التي وضّحت وأكدت صفات هذا الشخص المقصود.

التوقيع الثاني:

وقع الخليفة الحكم المستنصر ابن عبدالرحمن الناصر(ت٣٦٦ه) [١] ، وقع بخط يده على ظهر كتاب للوزير جعفر بن عثمان المصحفي: "**قرأنا كتابك بما ذكرت من اشتداد حالك، ووقوع بأسك، وارتفاع رجائك، فعظم علينا ذلك، وكثر غمنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أن يأتي الله بخير، ويعقب بعاقبة، فإن كان ما لابد من كونه قريبا أو بعيدا أو تخطانا، فكل ما سألت ورغبت في نفسك، وأهلك ومن تتخلف، فعلى أفضل الذي رغبته وأردته وأملته ورجوته، فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك، ومجهود حرمتك، ومحمود صحتك، وإنا لم يرد علينا من قبلك وناحيتك قط ما أغمنا، ولا ما أنكرنا، ولا سوء ثناء قط بشيء ظاهر ولا باطن، فإن تكن المصيبة، فإنا لله وإنا إليه**

---

١ - "المستنصر الأموي(٣٦٦-٣٠٢هـ -٩١٤-٩٧٦م) الحكم بن عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبدالله، خليفة أموي أندلسي. ولد بقرطبة، وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠هـ فطمع به ملك الإسبان (أردون بن ألفونس) فتهيأ للإغارة على قرطبة، فسبقه المستنصر وغزا الإسبان بنفسه، فعاقدوه على السلم، واشترط على (كُنت برشلونة) وسائر أمراء الكتلان دك حصونهم القريبة من ثغوره، وعاهدوه على أن لا يمالئوا عليه أحدا من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب. فقوي وكثرت فتوحاته. وزاره أردون في قرطبة مستجيرا به، وجاءته بيعة (شانجه بن ردمير) وطاعته مع قوامس (Contes) أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم. وأوطأ عساكره أرض العَدْوة - من المغرب الأقصى والأوسط - وخطب بدعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة. وكان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ، ضليعا في معرفة الأنساب، يروى له شعر. محبا للعلماء يستحضرهم من البلدان النائية فيستفيد منهم ويحسن إليهم، جماعا للكتب، قيل: إن مكتبته بلغت أربع مئة ألف مجلد. وفي أيام أبيه قصده من كتلونية مطران جيرون المسمى غودمار وألف له تاريخا لبلاد فرنسة من زمن قلوزيه (كلوفيس) إلى ذلك العهد. قال ابن حزم: اتصلت ولايته خمسة عشر عاما في هدوّ وعلوّ. وقال ابن حيان: وباسمه طرَّز أبو علي البغدادي القالي كتاب الأمالي، وعليه وفد، فأحمد وفادته. توفي بقرطبة مفلوجاً." (الأعلام، ج٢، ص٢٦٧).

راجعون، وإن تكن العافية، فالحمد لله رب العالمين على جديد إفضاله، وجميل بلائه، وعلى كل أحواله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" .[١]

يظهر في التوقيع خرق لمبدأ الكم إذ يظهر الإطناب في التوقيع، وزيادته على مقدار الحاجة؛ وذلك للازم معين وهذا مخالف لمبدأ التعاون، وشاذ عن الصورة النمطية القديمة للتوقيع الموجز المتعارف عليه، لكن ما شهده هذا القرن من التطور الذي طرأ على التوقيعات بفضل عدة أسباب– ذكرت فيما سبق– أدت إلى ظهور الإطناب في التوقيعات حتى أصبحت أحيانا شبيهة بالرسائل، وفي هذا التوقيع يظهر الاستلزام الحواري من خلال الإطناب الذي يحمل عدة مقاصد للمتكلم منها: الاهتمام بالشخص الموقع له، ومكانته الكبيرة في قلبه التي جعلته يسهب في الكلام، فكأنه يأنس بالكلام والحديث معه، ولعله أراد بتوقيعه الطويل مقصداً آخراً وهو التخفيف عن الوزير جعفر فيما أصابه، وطمأنته، والوقوف إلى جانبه، ويظهر ذلك من قوله: "**فعظم علينا ذلك، وكثر غمنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أن يأتي الله بخير، ويعقب بعاقبة**"، فضلا عن أنه ربما قصد المؤانسة، للتخفيف من وطئ محنته بذكر أفضاله وإظهار الرضا عنه، وذلك بقوله: " **فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك، ومجهود حرمتك، ومحمود صحتك، وإنا لم يرد علينا من قبلك وناحيتك قط ما أغمنا، ولا ما أنكرنا، ولا سوء ثناء قط بشيء ظاهر ولا باطن**"، ويظهر لزوم الإطناب هنا في تعدد العبارات لغرض زيادة التوضيح في

[١] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٦٠.

المعنى المراد، والتوكيد على أهمية هذا الشخص الموقع له، الذي جعل الخليفة يسهب في التوقيع لأجله، وبهذا يخرق مبدأ الكم لزيادته عن مقدار حاجة المخاطب.

التوقيع الثالث:

وقع الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد الطالقاني(٣٨٥هـ) على ظهر كتاب لابن جحا الكوفاني: "**لو استغنى موثوق بوده، مسكون إلى عهده، عن الإنكار بنفسه، والدلالة على صحة عقده، لكنت يا أخي -أطال الله بقاءك- ذلك الإنسان، لاعتمادي سريرتك الخاصة، ومودتك الصادقة، والله يعلم أني آنس إلى ذكرك إذا هو مر بسمعي، واسمك إذا خطر بفكري، فكيف بكتابك إذا قابل طرفي، وأوجب لك ما لي لا أوجبه من خلص من إخواني إلا لأفراد وأعيان يعز أمثالهم في الزمان، فخاطبني متى نشطت، واسترسل في حاجاتك كيف آثرت، وإن جريت فيما يخصك على الانقباض الذي هو طبعك، فكاتبني بحاجات إخوانك، ليعرفوا موقعك من إيثاري، ومحلك من اصطفائي واختياري، سقاك الله فرواك، وحياك وأحياك، وهو حسبي، وصلواته على النبي محمد وآله**" [١].

يظهر في هذا التوقيع خرق مبدأ الكم من خلال الإطناب الشديد، الذي حول التوقيع لرسالة إخوانية، ظهر فيه استلزاما حواريا حمل عدة مقاصد، وهي تتمثل في الاهتمام الواضح بالشخص الموقع له، ومكانته الكبيرة في قلب الصاحب التي انعكست في الإطالة في التوقيع، التي توضح الأنس بقربه وبالحديث معه، ومصارحته له في ذلك إذ قال: "

[١] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٢٢.

والله يعلم أني آنس إلى ذكرك إذا هو مر بسمعي، واسمك إذا خطر بفكري، فكيف بكتابك إذا قابل طرفي"، وأيضا الاتساع في التوقيع أوضح عدة أشياء منها شخصية صاحبه إذ قال: "**وإن جريت فيما يخصك على الانقباض الذي هو طبعك**" فالصديق الحقيقي يعرف أدق تفاصيل صديقه، وأيضا يظهر التوقيع قوة العلاقة بينهم وموقعه منه إذ قال: "**فكاتبني بحاجات إخوانك، ليعرفوا موقعك من إيثاري، ومحلك من اصطفائي واختياري**"، وقوله: "**اعتمادي سريرتك الخاصة، ومودتك الصادقة**"، فأوصل التوقيع المكانة والصلة الخاصة التي كانت بين هذين الصاحبين، وأيضا حمل التوقيع مشاعر الصاحب الصادقة والحقيقية لصاحبه، التي عبر عنها بالدعاء الصادق الذي هو أجمل وأنقى ما يكون بين الصحبة والأخوة والأحبة. إضافة لما سبق زاد الإطناب في التوقيع الجمل الاعتراضية كقوله: "أطال الله بقاءك"، وختامه بالصلاة على النبي محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

من خلال ما سبق يتضح التطور الذي طرأ على فن التوقيعات من خلال التوسع في الإطناب الذي أصبحت التوقيعات فيه أشبه بالرسائل، وخروجها عن الصورة النمطية التي تميزت بها في بداية نشأتها. ويظهر في مخالفة مبدأ الكم من خلال الإطناب أنه غلب على التوقيعات الجانب الاجتماعي وأصبحت بعض التوقيعات تشبه الرسائل الإخوانية، وذلك لأن الحديث ما بين الأحباب يحصل فيه الإطناب والتوسع والإكثار من الحديث رغبة في زيادة التواصل والقرب والأنس فيما بينهم.

موافقة مبدأ الكم من خلال المساواة

- **التوقيع الأول:**

توقيع للوزير الصاحب إسماعيل بن عباد الطالقاني(ت٣٨٥هـ) إذ كتب إليه أحد العلوية يخبره بأنه قد رزق مولودا، ويسأله أن يسميه ويكنّيه فوقع في رقعته: "**أسعدك الله بالفارس الجديد، والطالع السعيد، فقد ملا – والله – العين قرة، والنفس مسرة، والاسم علي، ليعلي الله ذكره، والكنية أبو الحسن، ليحسن الله أمره، فإني لأرجو له فضل جده وسعادة جده، وقد بعثت لتعويذه دينارا من مائة مثقال، قصدته به مقصد الفأل، رجاء أن يعيش مائة عام، ويخلص خلاص الذهب الإبريز من نوب الأيام، والسلام**" [١].

يلاحظ في هذا التوقيع أنه موافق لمبدأ الكم وليس فيه انتهاك، إذ كان التوقيع مساويا لمقدار حاجة الموقع له وكان الجواب على قدر الطلب وليس فيه إيجاز ولا إطناب، فالصاحب رد بتوقيعه على رجل من العلوية –نسبة إلى شيعة علي رضي الله عنه –، وقد رزق مولودا بهذه التهنئة المنتظرة، فقال: "**أسعدك الله بالفارس الجديد، والطالع السعيد، فقد ملا – والله – العين قرة، والنفس مسرة**"، ويقصد بها إظهار الفرحة والبهجة بقدوم المولود الجديد، ثم أجابه بالاسم والكنية المختارة وذكر سبب هذا الاختيار فقال: " **والاسم علي، ليعلي الله ذكره، والكنية أبو الحسن، ليحسن الله أمره**"، فقد اختار الاسم "علي"

[١] - محمد سالم، فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة، ص٢٢٢.

تبركا بعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – لأن أبا المولود من شيعته فهو من العلوية، ورغبة في أن يعلو ذكره كصيت علي – رضي الله عنه – واختار له "أبو الحسن" وهي كنية علي أيضا، رغبة في تحسن أحواله وأموره في حياته، ثم أردف ذلك بالدعاء للمولود فقال: "**فإني لأرجو له فضل جده وسعادة جده**"، أي جده علي – رضي الله عنه – ثم زاده بالهدية والعطية لأجل فرحة قدومه وغلفها بغطاء الفأل حيث قال: " **وقد بعثت لتعويذه دينارا من مائة مثقال، قصدته به مقصد الفأل، رجاء أن يعيش مائة عام، ويخلص خلاص الذهب الإبريز من نوب الأيام**"، وفي هذا التوقيع لا يظهر استلزام حواري، وإنما استلزام عرفي منطقي يحمل مقصد الفرحة والبهجة اللازمة لسماع هذه البشارة في قدوم المولود التي خطتها أحرف التوقيع للتهنئة والتبريك، وأيضا لازمة الإجابة بالاسم والكنية للمولود الجديد تلبية لطلب الأب، ولازمة الهدية المنتظرة لفرحة قدوم المولود الجديد.

- **الخلاصة:**

من خلال ما سبق يمكن القول: إن التوقيعات الأدبية في القرن الرابع الهجري جمعت بين متضادين من حيث الكم، إذ جمعت بين التوقيعات الموجزة والموجزة جدا التي قد تصل لكلمة أو حرف أو نقطة!، وبين التوقيعات الطويلة الشبيهة بالرسائل، وهذا من التطور الذي وصلت إليه التوقيعات في هذا القرن، وما أصابها من الإطناب والتوسع الذي قد يكون أحيانا مبالغًا فيه، وهو يرجع إلى ما أحدثه الفرس في التجديد والتطور الذي

أدخلوه على فن التوقيعات من حيث الأسلوب، و من حيث الإطناب الذي تجاوز الإيجاز المتعارف عليه سابقا في عصور نشأة التوقيعات، أيضا لا تخلو بعض التوقيعات من موافقة مبدأ الكم من خلال المساواة في الإجابة على قدر السؤال أو الطلب.

الخاتمة:

في ختام البحث يمكن التوصل لعدة نتائج، وهي كالآتي:

- ظهر الاستلزام الحواري في فن التوقيعات بين الإيجاز والإطناب لمقاصد محددة غير مباشرة، أرادها الموقعون ولم يشيروا إليها حرفيا وذلك من البلاغة التي اتصف بها العرب.

- انتهاك مبدأ الكم من خلال الإيجاز في توقيعات القرن الرابع الهجري أقل بصورة واضحة مما ظهرت عليه التوقيعات في بداية نشأتها .

- مخالفة مبدأ الكم من خلال الإيجاز ظهر بعدة صور، إما بصورة متوسطة كثلاث أو أربع كلمات، وفي بعض الأحيان تجاوز إلى الإيجاز الشديد إما بكلمة أو حرف أو نقطة، وأحياناً الاقتصار فقط على تقديم وتأخير.

- ظهرت بعض الهفوات في بعض التوقيعات وذلك للإيجاز الشديد المبالغ فيه الذي أدى إلى الإخلال بالمعنى والانحراف بعملية التأويل.

- ظهور مخالفة مبدأ الكم من خلال الإطناب في التوقيعات بشكل مطول أحيانا وهو أشبه ما يكون بفن الرسائل لا بفن التوقيعات.

- مخالفة مبدأ الكم من خلال الإطناب في التوقيعات ظهر بعدة أوجه منها: التوقيعات الطويلة التي تكون أشبه بالرسائل فقد تصل أحيانا إلى ثمانية أسطر، أو الإطناب من خلال ذكر المعاني عينها بصور ووجوه مختلفة.

- ظهور المساواة في بعض التوقيعات وهي موافقة لمبدأ الكم ولا تتضمن استلزاما حواريا، إذ يكون الجواب على قدر السؤال أو الطلب .

- ظهور كثرة التوقيعات في جانب الإيجاز على جانب الإطناب، وذلك؛ لأن الإيجاز سمة فريدة يتميز بها التوقيع، لكن ظهر الإطناب بصورة واضحة في هذا العصر أكثر من العصور التي قبله.

- ظهور غلبة الجانب السياسي على التوقيعات الموجزة، وغلبة الجانب الاجتماعي على التوقيعات الطويلة، وذلك لما يستلزمه كل جانب من أهداف ومقاصد محددة، يحددها قصر التوقيع أو طوله.

- ظهور شخصية الصاحب إسماعيل بن عباد في توقيعاته – لكثرتها – ؛ ما بين الإيجاز والإطناب والمساواة، وما بين الجمع بين الأدب والإنشاء وما بين حسن

التدبير وسرعة إنجاز المهام؛ إذ تباينت توقيعاته ما بين التوقيع الموجز الذي يدل على شخصيته العملية، ويهدف لسرعة الإنجاز كتوقيعه بنقطة وحرف!، وما بين التوقيع الطويل الذي يدل على شخصيته العاطفية، ويهدف للتعبير عنها كتوقيعه على ظهر كتاب ابن جحا الكوفاني، أيضاً ظهور شخصيته الأدبية من خلال التوقيعات الإنشائية الأدبية الرفيعة التي توضح مكانته الأدبية.

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

أبو زيد، د. علي (١٩٩٧م) أحمد بن يوسف الكاتب الوزير دراسة أسلوبية في آثاره الفنية، دار المعارف.

أدراوي، العياشي (٢٠١١م) الاستلزام الحواري في التداول اللساني، الرباط: دار الأمان منشورات الاختلاف.

إسماعيل، صلاح (٢٠٠٥م) نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، القاهرة: الدار المصرية السعودية.

البطليوسي، عبدالله محمد السيد، أبو محمد (١٩٩٦م) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد الحميد، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.

بلانشيه، فيليب (٢٠٠٧م) التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر حباشة، اللاذقية: دار الحوار، سوريا.

بوقرة، نبيلة (٢٠١٩م) الاستلزام التخاطبي في كتاب الأذكياء لابن الجوزي، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، العدد(١- المجلد٤) ٤١٠- ٤٢٤.

الجبوري، عبدالله (د.ت) معجم المصطلحات الحضارية على طبقات الشافعي للأسنوي.

الجرجاني، عبد القاهر (١٩٩٢م) دلائل الإعجاز، ط٣، تحقيق: محمود شاكر، جدة: دار المدني.

حجاب، د. محمد نبيه (١٩٨٦م) بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط٢، مكتبة الطالب الجامعي.

حمون، كوثر (٢٠١٧م) الاستلزام الحواري من خلال خطابات سيدنا إبراهيم –عليه السلام– دراسة تداولية، رسالة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.

ختام، جواد (٢٠١٦م) التداولية أصولها واتجاهاتها، الأردن: كنوز المعرفة.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (١٩٨١م) المقدمة، ط٢، تحقيق: د. علي عبد الواحد، مصر: دار نهضة مصر للطباعة.
ذهبية، حمو الحاج (٢٠٠٧م) قوانين الخطاب في التواصل الخطابي، مجلة الخطاب، العدد٢: ٢١٩- ٢٢٩.
روبول، آن، وموشلار، جاك (٢٠٠٣م) التداولية اليوم. ترجمة: د. سيف الدين دعفوس، ود. محمد الشيباني، بيروت: دار الطليعة.
الزركلي، خير الدين (٢٠٠٢م) الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين.
صحراوي، د. مسعود (٢٠٠٥م) التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، بيروت: دار الطليعة.
ابن عذاري، أحمد محمد (٢٠١٣م) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود بشار عواد، تونس: دار الغرب الإسلامي.
فروخ، د. عمر (د.ت) تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية، بيروت: دار العلم للملايين.
قريميدة، محمد سالم (٢٠١٢م) فن التوقيعات في الأدب العربي في عصوره الزاهرة من العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي تاريخا ودراسة، رسالة دكتوراه، جامعة طرابلس، طرابلس، ليبيا.
ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل عمر (١٤١٩ه) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
ابن منظور، محمد مكرم (د.ت) لسان العرب، بيروت: دار صادر.
نحلة، محمود أحمد (٢٠٠٢م) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية.